التزكية وعلاقتها بمحاور القرآن ـ دراسة موضوعية قرآنية

إعداد

د. أنس أحمد

الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

ملخص البحث

تعد تزكية النفوس من أهم مقاصد الشريعة الغراء، والدين الحنيف، وما مقصد أو ضرورة من الضرورات الخمس إلا وهدفه الحقيق بلوغ النفس لزكاتها وصلاحها.

وقد نهجت في بحثي لتحقيق مرادي منهجية استقرائية استقصائية متجنبًا التكرار ما استطعت.

وأهم ما توصلت، العلاقة الوثيقة بين موضوعات القرآن المحورية والتزكية، وإن كان موضعها في ذاته بعيدًا في ظاهره البعد عن محور التزكية، إلا أنها جميعا تدور في فلك واحد ألا وهو إصلاح البشرية ظاهرا وباطنا.

الكلمات المفتاحية: التزكية، النفس، الطهارة، سلامة القلب، التربية.

Abstract:

The goal of the research is to purify souls, one of the most important goals of the noble Sharia and the true religion, and there is no goal or necessity among the five necessities that does not have its true goal to achieve the soul's purity and righteousness.

In my research, I used an inductive, investigative methodology to achieve my goals, avoiding repetition as much as I could.

The most important finding is the close relationship between the central topics of the Quran and purification, even though their location in itself is apparently far from the axis of purification. However, they all revolve around one focus, which is reforming humanity, both outwardly and inwardly.

Keywords: purification, soul, purity, soundness of heart, education.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

المقدمة

الحمد لله الذي منّ علينا بالهداية، وأنزل علينا كتاباً عظيماً أودع فيه أسبابها، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الشريعة الإسلامية قد تعددت مقاصدها وتنوعت غاياتها، من حفظ للدين إلى المال والعقل والنفس والنسل، حتى اصطلح فيما بعد على أنها كليات الدين أو مقاصده الخمسة، وإن هدفًا ساميًا وراء ذلك كله وهو تحقيق السعادة في الدنيا، والفلاح في الآخرة، لكن مقصدًا سادسًا -إن جاز للباحث هذا التعبير- لابد وأن ينضاف إلى هذه المقاصد الكلية الخمسة، وهو (حفظ الروح) وهو وإن كان لا يتعلق بالأحكام والعملية والتطبيقية بصورة مباشرة إلا أنه من أهم مقاصد هذا الدين القويم والكتاب الحكيم التي من شأنها تحقيق سعادة الدارين، ولا نعني الروح التي هي مادة الحياة، والتي إذا اتصلت بالبدن صار حياً، وإذا انفصلت عنه صار ميتاً، إنما نريد تلكم المعنوية التي تحيا بالإيمان وتتغذى على القرآن، الروح أو النفس؛ ذلكم المكون الذي تمتاز به أمة القرآن عن غيرها من الأمم من حيث عنايتها به ورعايتها لكل جوانبه، فالقرآن الكريم بكل ما فيه من آيات عقائد وأحكام وقصص وأخلاق وتربية وسياسة وغيرها من الموضوعات، شاهد على أن أعظم الغايات هي إصلاح النفس البشرية وتزكيتها، حتى تكون صالحة لخلافة الله في أرضه، وصالحة للقائه يوم العرض {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)} [الشعراء]، ولعل هذا كان من أهم الأمور التي دعتني لاختيار هذا البحث المسوم بـ (التزكية وعلاقتها بمحاور القرآن ـ دراسة موضوعية قرآنية).

مشكلة البحث:

تعد المعاني التزكوية من المعاني نادرة التناول في زماننا بعد أن كانت محورًا أساسيًا في البناء التربوي لجيل الصحابة عليهم رضوان

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الله تعالى، وللأجيال التي تلتهم من التابعين وتابعيهم، حتى صارت -في رأي الباحث- علامة فارقة بين تلك الأجيال والأجيال من بعدهم، فكانت العناية في الجانب الروحي التزكوي تتناقص شيئًا فشيئًا حتى صارت من الموضوعات المهجورة التي لا تُطرق في مجالس العلم، سوى من إشارات بعيدة خجولة، ولعل هذا يرجع لسوء في فهم معانيها، وضعف في القدرة على استنباط إشاراتها، وأهم من ذلك فصل المعاني التزكوية عن موضوعات الدين ومقاصده، وعزلها عن أصوله ومحاوره، ولعلي في هذه الدراسة أفتح بابا مشرعا لنفسي والدارسين على هذا المقصد الكريم، والله أسأل التوفيق والسداد.

أهمية البحث: تزكية الروح مقصد المقاصد العالية.

فإن للشريعة الإسلامية حكم كثيرة، ومقاصد جليلة، تعهدها بالبحث والتمحيص علم جليل ودقيق، ألا وهو علم المقاصد، دارت أبحاث العلماء حول خمسة، وهي ما اصطلحوا عليه مقاصد الشريعة، فما معنى مقاصد الشريعة؟ وما هي هذه المقاصد؟ وهل يمكننا أن نعد التزكية مقصدًا سادسًا يمكن إضافته للمقاصد الخمسة؟

قال الشاطبي رحمه الله: « مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها» [1] ، وقال الريسوني: «المقاصد جمع مقصد، والمراد بالمقصد هنا: المعنى والهدف والغرض الذي قصده الشارع، فهو مقصد له، وهو مقصود له كذلك» [2] . والمقاصد الخمسة هي حفظ الدين والنفس، والعقل والنسل، والمال [3] .

وقد سماها أصحاب هذا الفن بمسميات عدة، كلها تدلل على مكانتها وأهميتها، فمنهم من قال هي (المصالح الضرورية)، ومنهم من قال هي (الكليات الخمس)، ومنهم من أطلق عليها (أسرار التكليف)، ومن اللطيف أن نعرف أن أشهر كتب المقاصد ما كتبه الشاطبي، الذي كان قد وسمه في بداية الأمر (التعريف بأسرار التكليف)، ثم

١- مقاصد الشريعة للشاطبي، ص (١١٥).
٢- محاضرات في مقاصد الشريعة، الريسوني ص (٩)
٣- مقاصد الشريعة للشاطبي، ص (١٢٠).

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

غيره ليصبح الكتاب المعروف بـ (الموافقات) [٤]، وأخيرًا وليس آخرًا فقد سماها الإمام الكبير الطاهر ابن عاشور (المقاصد العالية).

وقد اعتنى العلماء بهذه الكليات عناية فائقة فقعدوا وأصلوا، بل وعدوها أساسًا ومرتكزًا في هذا الدين القويم، قال الشاطبي رحمه الله: «هي أصول الدين، وقواعد الشريعة، وكليات الملة» [٥]، فلا يقوم الدين ولا يصح التدين ما لم يكن مرتكزًا عليها، ولا تقوم الشريعة ما لم تكن مبنية عليها.

فإذا كانت هذه القواعد بهذه الأهمية، فإن التزكية لا تقل أهمية عن هذه القواعد الخمسة، بل هي في نظر الباحث تزاحمها وتنافسها، وليس أقل من إضافتها إليها وجعل هذه الضرورات ستًا بدلا من كونها خمسًا، وهذا لعدة اعتبارات، منها:

- إذا كانت آيات الأحكام التي ارتبط بها علم المقاصد هي على أكثر التقديرات حول ثمانمئة آية [٦]، ومع ذلك فقد حظيت بكل هذه المجهودات المباركة التي انبثق عنها علم المقاصد، فقد عالج كل مقصد من هذه المقاصد جزء من هذه الأحكام، حتى تمت على حالها الذي نعرفه الآن، (المقاصد أو الضرورات أو الكليات الخمس)، فكيف بنا إذا علمنا أنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب العزيز إلا وفيها ذكر لجانب من جوانب التزكية، والتي أتينا على نزر يسير منها في هذه الرسالة.
- ومما يشهد على عظم شأن التزكية كذلك قول ربنا: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)} [الشمس] بعد أطول سياق قسم في القرآن الكريم: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)} [الشمس]. ويشهد عليه كذلك ذكر التزكية في أولى أولويات نبي الأمة تجاه أمته، قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

٤- الموافقات، للشاطبي، ص (١٠).
٥- مقاصد الشريعة للشاطبي، ص (١٢٠).
٦- انظر التفصيل في مبحث العلاقة بين التزكية والأحكام

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [آل عمران ١٦٤]، فالتزكية سر من أسرار التكليف التي أرادها الله جل في علاه، بل هي في نظر الباحث سيدة هذه الأسرار وأعلاها.

ولعل مما دعاني لأن أعد مقصد تزكية النفس من هذه المقاصد، بل هو سيد المقاصد، أنه كما نعلم أن الجسد خادم للروح، وكل ما من شأنه خدمة الجسد، فهو بلا شك دون ما من شأنه خدمة الروح، بمعنى أن المقاصد الخمسة التي تخدم بشكل أساسي الأحكام الشرعية العملية التي بدورها تخدم الإنسان من الناحية المادية والجسدية، كلها في نهاية المطاف تخدم هذا المقصد العالي والرفيع الذي بدوره أن يخدم الإنسان من الناحية المعنوية والروحية، والتي هي محل النظر والتمحيص لقول رسولنا الكريم: «إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [٧].

ومما دعاني أن أعد مقصد (تزكية النفس) سيد المقاصد، قول الرسول الأعظم عليه صلوات ربي وسلامه: «ألاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وهي القَلْبُ» [٨]، يقول الشاطبي في الموافقات: «الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرماً، حُكم على الباطن بذلك، أو مستقيماً حُكم على الباطن بذلك أيضاً» [٩]، ومن جميل ما قال الغزالي في هذا السياق: «إن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها، ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه...» [١٠].

ومما دعاني كذلك الحاجة الماسة إلى الصلاح والسلامة، قال ابن عاشور رحمه الله: «واستقراء أدلة كثيرة من القرآن والسنة الصحيحة يوجد لنا اليقين بأن أحكام الشريعة الإسلامية منوطة بحكم وعلل

٧- صحيح مسلم (٢٥٦٤)
٨- صحيح البخاري (٥٢) وصحيح مسلم (١٥٩٩) وغيرهما.
٩- الموافقات للشاطبي (٢٣٣/١)
١٠- إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي (٨٣٧) دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

راجعة للصلاح العام للمجتمع والأفراد»[11]، والصلاح العام هو صلاح الباطن والظاهر على حد سواء، أما الظاهر فصلاحه يكون باستقامة المؤمن على أمر الله في الأحكام العقدية والفقهية والتربوية، وهذا ما يقتضيه العمل بمقتضى (الكليات الخمس) المعروفة، أما الباطن فصلاحه فهو غاية الغايات، وأسمى المرجوات، وهو بتزكية النفس وتطهيرها من كل ما قد يعلق بها من الشهوات والملذات والمشغلات عن الله رب البريات، وهذا ما يقتضيه العمل بمقتضى (تزكية الروح والنفس)، ولعل هذا المقصد العظيم الذي لا يختلف على أهميته وضرورته أحد من أهل العلم، أن يضاف إلى قائمة المقاصد الخمسة فيكون هو سادسها، وكأني بهذا المقصد الجليل -وكلها كذلك- متربع على عرش هذه المقاصد في مقام الأولية والسيادة، فهو صلاح النفس[12] والروح لمقامات الهداية والرشاد، وصلاح النفس والروح لمقامات العبودية والطاعة، وصلاح النفس والروح لمقامات الخلافة والتكليف، حتى ينتهي المطاف بصلاح النفس والروح للمثول بين يدي المولى جل في علاه.

ولأن الأمة اليوم هي أحوج ما تكون إلى منهج تزكوي واضح المعالم، بعد أن هاجت الدنيا وماجت بأهلها، فغرقت البشرية بمادياتها، وغفلت عن منهج ربها، وبات الحديث عن التزكية أمرًا مستهجنًا، حتى في أوساط طلبة العلم والباحثين، وباتت مصطلحاتها تصيب السامعين بشيء من الغرابة، كالتزكية والتحلية والتخلية وطهارة الروح وزكاة النفس وسلامة النفس والقلب وغيرها، وصارت مثل هذه الموضوعات والمصطلحات لا تذكر إلا في أضيق نطاق وأقل حدود، وكأن تزكية النفس مقتصرة على فئام من المسلمين، وكأنها فضل وزيادة. فمتى كان الإخلاص في العمل زيادة؟ ومتى كانت التقوى زيادة؟

وبناءًا على ما سبق فقد رأى الباحث أن من واجبه أن يفرد لهذا المقصد القرآني الجليل بحثًا موضوعيًا يتناول التزكية الروحية

١١- مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، ص (١٧).
١٢- والمراد من النفس هنا هي التي ترادف الروح، وليس تلك التي تعني الإنسان نفسه، بدنه وأعضاؤه.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وعلاقتها في أهم المحاور القرآنية كالعقيدة والأحكام والقصص، بشكل يليق بجلال هذا المقصد وأهميته، ولعله يكون باكورة أعمال قرآنية متخصصة ودقيقة، سائلا المولى سبحانه النفع والثواب.

أهداف البحث

- إبراز روعة النظم القرآني في معالجة النفس وتزكيتها.
- إبراز أهمية هذا المقصد الأسمى (تزكية النفس والروح)، من خلال بيان ارتباطه بالموضوعات المحورية الإيمانية والتطبيقية في القرآن، مما يجعلها مادة حية قابلة للتعلم والتطبيق، في زمان طغت المادة فيه على الروح، وصارت التزكية من المفاهيم الغامضة المحتكرة.
- رفد المكتبة الإسلامية بمزيد من الدراسات القرآنية الموضوعية المتخصصة.

منهج البحث

- اتّبعت في دراستي منهجية التفسير الموضوعي: كالاستقراء، والاستقصاء، والإحصاء ما استطعت، متجنبا التكرار والإطالة.
- الرجوع إلى المصادر الأصيلة والأمهات في علم التفسير، مستنيرا بأعمال المعاصرين.
- عزو الآيات إلى سورها مع رقمها في السورة، ما لم يكن الاستدلال بأكثر من آية من السورة الواحدة، فقد اكتفيت بترقيمها كما هو في مصحف الرسم العثماني، متبوعة باسم السورة.
- الاستدلال في الأحاديث الصحيحة، مع ذكر تخريجها في الهامش، مكتفيًا بذكر الشيخين إن كان مما رواياه، وإلا فأذكر أشهر الكتب التي خرجته، وذلك حسب ضوابط التخريج وأصوله، وذكر حكم العلماء عليه.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الدراسات السابقة

بعد البحث والتقصي في المكتبة الإسلامية، وبعد الرجوع إلى أهل الفضل والعلم من أساتذتي، لم أجد بحثا علميا محكما في هذا الموضوع سوى دراسة واحدة ذات صلة بموضوع بحثي، وهي:

المنهج القرآني في تزكية الأنفس، دراسة موضوعية من خلال القصص القرآني، محمود إبراهيم محمود نور، بحث مقدم لاستكمال درجة الماجستير، في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية – غزة، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

فقد تناول الباحث موضوع التزكية مقتصرًا في بحثه على القصص النبوي في إبراز المنهج القرآني في التزكية، لكن العجيب في الأمر عدم انسجام العنوان مع المحتوى، فقد خصص الباحث من رسالته ما لا يزيد عن عشرين بالمئة للحديث عن منهج الأنبياء في التزكية. ومع ذلك راح يتحدث عن منهج الأنبياء في دعوة أقوامهم بشكل عام، من خلال دعوتهم للتوحيد واستعمال اللين والتلطف معهم، وتخويفهم من الآخرة والعذاب، وهذا طرح عام بعيد عن العنوان، ثم جعل فصلاً لوسائل تزكية النفس، مقسما إياه لوسائل عامة وخاصة، لكنني وعند النظر فيها وجدت عجبًا، فقد جمع في الوسائل العامة بين التوحيد والتيمم، وجعل في الخاصة تلاوة القرآن ومكائد الشيطان، فأي معيار جعله يفعل هذا؟! ثم أدهشني عندما جعل من وسائل التزكية: الوضوء، والغسل، والتيمم، واعتزال النساء في المحيض، بل وراح يفصل في بعضها ويذكر القراءات وتوجيهها في بعضها الآخر، أما ما يميز بحثي:

- خدمة المحتوى للعنوان، فقد كان بارزا في كل مبحث أو مطلب علاقته بالتزكية وكيف أنها مقصد أصيل من مقاصد القرآن الكريم.
- تناول الموضوع من جانب واحد مركز، يستحيل معه التشتت في جوانب التزكية ومعانيها الكثيرة.
- بيان العلاقة بين التزكية والموضوعات المحورية في القرآن الكريم ألا وهي: العقيدة، والأحكام، والقصة القرآنية.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

- الأسلوب الإحصائي في موضوعات الدراسة ما أمكن، مما يشعر القارئ بالإحاطة بالموضوعات.

خطة البحث

لقد جعلت الدراسة في فصلين بين مقدمة وخاتمة، وهي على النحو الآتي:

الفصل الأول (التمهيد): تزكية النفوس بين اللغة والقرآن، وبعض المصطلحات المقاربة، وفيه مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: مفهوم التزكية.

المبحث الثاني: الاستعمال القرآني للمادة (زكا).

المبحث الثالث: ألفاظ مقاربة أو مرادفة للتزكية في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التربية.

المطلب الثاني: الطهارة.

المطلب الثالث: سلامة القلب.

الفصل الثاني: محاور القرآن الثلاثة وعلاقتها بالتزكية، وفيه مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: العقيدة والتزكية.

المبحث الثاني: الأحكام والتزكية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الأحكام الفقهية العملية

المطلب الثاني: الأحكام الاخلاقية والتربوية

المبحث الثالث: القصص والتزكية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: قصص الأنبياء

المطلب الثاني: القصص الآخر

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الفصل الأول

وفيه مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: مفهوم التزكية لغة واصطلاحا

قال ابن فارس في مقاييس اللغة: (زكى) الزَّاي والكافُ والحرف المعتل أصلٌ يدلُّ عَلَى نماء وزيَادةٍ. وَيُقال الطَّهارةُ زكاة المال. قال بعضهم: سُميت بذلك؛ لأنها مما يُرْجَى به زكاء المال، وهو زيادته ونماؤه. وقال بعضهم: سُميت زكاةً؛ لأنها طهارة. قالوا: وحجة ذلك قوله جل ثناؤه: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة: ١٠٣]، والأصل في ذلك كله راجع إلى هذين المعنيين، وهما: النماء والطهارة. (١٣).

قال ابن منظور: وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة، النماء والبركة، والمدح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث، ووزنها فَعلة كالصدقة، فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا، وهي من الأسماء المشتركة بين المخرج والفعل، فيطلق على العين وهي الطائفة من المال المزكى بها، وعلى المعنى وهي التزكية» (١٤).

وقال الدكتور أحمد مختار عمر: ازّكّى الشخص: تزكى، اهتدى وصلح وتطهر {وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى} [عبس ٧]، النفس الزّكية: التي لم تذنب قطُّ، أو التي إذا أذنبت غفر لها، زكّي المغرس: كريم الأصل، طاهر العنصر، أرض زكية: طيبة خصبة، زكّى المرشّح: ساانده وعززه، زكّى الشهود: عدهم من الثقات العدول، تزكية: الفوز بالتزكية، أي الفوز دون منافس (١٥).

ومن خلال ما تقدم فإن مادة (زَكَا) قد استعملت لعدة دلالات ومعان، هي:

- المدح والثناء، وهو على شقين: ما كان من الإنسان في مدح نفسه وتفضيلها، وما كان من فعل غيره مدحًا وثناءً.

١٣- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة زكا، ص (٣/ ١٧-١٨).
١٤- لسان العرب، لابن منظور – الجذر زكا، ص (١٤/ ٣٥٨).
١٥- معجم اللغة العربية المعاصرة- الدكتور أحمد مختار عمر- ط الأولى ٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ - عالم الكتب. المجلد الثاني- ص (٩٨٩)- الجذر (زكا).

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

- طهارة المال بالفريضة الشرعية، وهي بلا شك تؤدي بالضرورة إلى زكاة النفس، كما سنبينه لاحقًا.
- طهارة النفس وصلاحها، وهو مجال البحث.

فتزكية النفوس: هي تخليتها من أسباب الشر، وتحليتها بأسباب الخير، وتطهيرها من آثار الإثم.

المبحث الثاني: الاستعمال القرآني للمادة (زكا):

وردت مشتقات الجذر (زكا) تسعًا وخمسين مرة، في ست وخمسين آية، وتعددت دلالاتها كما أشرنا سابقًا، وهي على النحو الآتي:

أولاً: ما كان في معنى المدح والثناء فقد وقع في القرآن الكريم في آيتين،

ثانيًا: ما كان للدلالة على ركن الزكاة فقد وقع في ثلاثين آية.

ثالثًا: ما كان للدلالة على النفوس وتزكيتها -وهو محل دراستنا- فقد وقع في أربع وعشرين آية، وقد أوردت في المسرد الآتي ما يتعلق بتزكية النفوس فقط:

- {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة ١٢٩].

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة ١٥١].

- {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة ١٧٤].
- {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة ٢٣٢].
- {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران ٧٧].

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

- {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} [آل عمران ١٦٤].
- {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة ١٠٣].
- {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} [الكهف ١٩].
- {فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا} [الكهف ٧٤]
- {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف ٨١].
- {وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا} [مريم ١٣].
- {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا} [مريم ١٩].
- {جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ} [طه ٧٦].
- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور ٢١].
- {فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [النور ٢٨].
- {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور ٣٠].
- {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [فاطر ١٨].
- {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

[الجمعة ٢].

- {فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ} [النازعات ٢٠].
- {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ} [عبس ٣].
- {وما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ} [عبس ٧].
- {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ} [الأعلى ١٤].
- {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} [الشمس ٩].
- {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ} [الليل ١٨].

المبحث الثالث: ألفاظ مقاربة للتزكية في القرآن، وفيه ثلاثة مطالب .

المطلب الأول: التربية

التربية لغة:

قال ابن منظور: ربا، يربو، رُبُوًا، ورباء: أي: نما وزاد، وأربيته: نميّته [١٦]، وفي التنزيل: {ويربي الصدقات} [البقرة: ٢٧٦]، ثم نقل ابن منظور عن الجوهري قوله: رَبَّيْته تَرْبِية وتَرَبَّيْته أَي غَذَوْتُه، قال: هَذا لكل ما يَنْمِي كالوَلَد والزَّرْع ونحوه [١٧].

وفي مقاييس اللغة (رَبَى) الرَّاءُ والباءُ والحرفُ المعتلُّ وكذلك المهموز منه يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو الزِّيادةُ والنَّماءُ والعلو. تقول من ذلكَ: رَبَا الشَّيءُ يَرْبُو، إذا زاد. ورَبَا الرابية يَرْبوهَا، إذا علاها. ورَبَا: أَصَابَهُ الرَّبْوُ، وَالرَّبْوُ: عُلُوُّ النفس. ويقالُ أَرْبَتِ الحنطة: زَكَتْ، وهيَ تُرْبِي. ويُقالُ رَبَّيْتُهُ وَتَرَبَّيْتُهُ، إذَا غذوْتُهُ. وقال أيضًا: إذَا رُبِّيَ، نما وزكَا وزادَ. [١٨]

وقال الدكتور أحمد مختار عمر: (ر ب و / ربا) يربو (مضارع مبني للمعلوم) يفعُل: يزيد ويزكو {وما اتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله} [الروم ٣٩] الزيادة، و (ر ب و / ربَّى)، ربَّى (ماض مبني للمعلوم) فعَّل غذَّى ونشَّأ {وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً} [الإسراء ٢٤] وقال تعالى: {قال ألم نربك فينا وليدا} [الشعراء ١٨] التربية. [١٩]

١٦- لسان العرب لابن منظور (١٥٧٢)
١٧- المرجع السابق
١٨- مقاييس اللغة لابن فارس، ص (٤٨٣/٢) تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر للطباعة والتوزيع. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
١٩- المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، د. أحمد مختار عمر، ص (١٩٩) مؤسسة سطور المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التربية اصطلاحا:

إن مفهوم التربية مفهوم عام يشمل الحالة النفسية والعقلية والبدنية والمالية والاجتماعية، لكنه قد يقتصر على بعضها، وذلك تبعا لمنهج المربي وفكره ودينه، وبناء على هذا فإني سأفصل بين مفهومَي: التربية عمومًا، والتربية الإسلامية خصوصًا:

التربية (المفهوم العام):

قال الراغب الأصفهاني بأنها: «إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام» [٢٠] وقول البيضاوي: « الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا» [٢١] ذكر صاحب معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية أن التربية: هي النظام الاجتماعي الذي يعمل على تنمية النشء من النواحي الجسمية والعقلية والأخلاقية، حتى يمكنه من أن يحيا حياة سوية في البيئة التي يعيش بها» [٢٢]

التربية الإسلامية (المفهوم الخاص):

قال التربوي مقداد يالجن: «التربية إعداد الفرد المسلم إعدادا كاملا، من جميع النواحي في جميع مراحل نموه للحياة الدنيا والآخرة، في ضوء المبادئ والقيم، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي جاء بها الإسلام». [٢٣]

وقال آخرون: التربية تكوين الإنسان الصالح في المجتمع الصالح، والعناية بالفرد من مهده إلى لحده، بتوازن بين قواه ونزعاته المختلفة، وبين دنياه وأخراه، وبين جميع جوانبه الروحية والخلقية والعقلية والنفسية والاجتماعية والإبداعية والمادية، وفق المعتقدات والقيم التي تتفق مع روح الإسلام، وفي ضوء طرق وأساليب التربية التي بيَّنها. [٢٤]

ومن خلال ما سبق أقول: إن التربية الإسلامية هي تنشئة الفرد وإصلاحه وتلبية احتياجاته النفسية والعقلية والبدنية والمالية والاجتماعية، وفق المنهج الرباني، بما يحقق له السعادة في الدارين.

٢٠- مفردات ألفاظ القرآن للاصفهاني، ص (٣٣٦) ، كتاب الراء، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم -دمشق.
٢١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي (١/٢٨) تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٢٢- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، ص (١٢٧) ، مكتبة لبنان، ط الأولى ١٩٧٨م.
٢٣- معجزة الإسلام التربوي محمد أحمد السيد، ص (٢٩) ، دار البحوث العلمية- الكويت، ١٩٧٨م.
٢٤- مدارس التربية الإسلامية، حسان محمد ونادية جمال الدين، ص (١٤)، دار الكتاب اللبناني ٢٠٠٣.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التربية في الاستعمال القرآني:

استعمل القرآن الكريم المادة (ربو) عشرين مرة، لها دلالات ومعانٍ متعددة، منها:

- الزيادة والنماء، كما في قوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُضْعِفُونَ} [البقرة ٣٩].
- الارتفاع والظهور، كما في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت ٣٩].
- التنشئة والتغذية والرعاية والتوجيه، قال سبحانه: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء ٢٤]، وهي رحلة التربية التي ابتدأت بالتغذية ثم العناية ثم التأديب والتنشئة على مكارم الأخلاق وطيب الأعراف، ثم التوجيه الهادف والمسؤولية، ثم بناء الذات والاعتماد على النفس، فيبقى الإنسان في أطوار التربية في رحلة الحياة من المهد إلى اللحد، ولعل هذا أعظم ما قدّس الله من أجله مكانة الآباء.

العلاقة بين مفهومي: التزكية والتربية:

أولاً: تُعدّ التربية أعمّ من التزكية، وذلك من حيث:

- كون التربية تبدأ مع الإنسان منذ ولادته، ولا تكون التزكية إلا بعد بلوغ الإنسان سنًا يكون فيها مميزًا مدركًا لمعانيها السامية. فلا شك أن من أركان التربية الصالحة: الزكاء والطهارة والسلامة من القبائح والمعايب، وقد عدّ العلامة ابن عاشور التزكية أثرًا من آثار التربية، فقال في معرض الحديث عن التقوى: اعلم أن قوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى؛ مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس، مثل: حسن التربية ونقاء النسب... فإن في خُلُق الأبناء آثارًا من طباع الآباء الأدنين أو الأعلين، تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده، وإن للتهذيب والتربية آثارًا جمة في تكميل النفوس أو تقصيرها،

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة. وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخطط التقوى [٢٥].

- تلبية كل ما يحتاجه المرء في نفسه وبدنه ومجتمعه، أما التزكية، فهي تطهير للباطن وإصلاح النفس والروح.

ثانيًا: اختصاص مصطلح التزكية بالهدايات الإيمانية، بينما مفهوم التربية صار مفهومًا يُستعمل في تعديل السلوك البشري بغير تقيد بالمنهج الرباني، إنما يحكمه العقل والفكر والعرف والحاجة، حتى صار فنًا واسعا وله أهل أكثروا منه وأوسعوا فيه.

المطلب الثاني: الطهارة

تعريف الطهارة لغة:

قال ابن فارس: (طَهَرَ) الطاء والهاء والرَّاء أَصلٌ وَاحدٌ صحيحٌ يدلُّ على نقاءٍ وزوال دنسٍ. ومن ذلك الطُّهْرُ، خلافُ الدَّنس. وَالتَّطهُّرُ: التَّنَزُّهُ عن الذم وكل قبيح. [٢٦] وقال ابن منظور: (طهر) والطهر: نقيض النجاسة، والجمع أَطْهار. وذكر نساء أهل الجنة، فقال: وهُنَّ طاهراتٌ طهارة الأَخلاق والعفة، والتطَهُّر: التنزُّه والكَفُّ عن الإِثم وما لا يَجْمُل والتنزُّه عما لا يَحِلُّ. [٢٧]

الطهارة اصطلاحا:

قال الراغب رحمه الله: الطَّهارةُ ضربان: طهارةُ جسم، وطهارة نفس، وحمل عليهما عامّة الآيات [٢٨]، وحتى يتضح المعنى الاصطلاحي لابد من ذكر أنواع الطهارة، ثم بيان معنى كل منها:

أولاً: الطهارة الحسية أو طهارة الظاهر: وهي ارتفاع الحَدَث بالماء أو التراب الطَهورين المباحين، وزوال النجاسة والخبث، فالطهارة هي زوال الوصف القائم بالبدن المانع من الصلاة ونحوها. [٢٩]

ثانيًا: الطهارة المعنوية أو طهارة الباطن أو طهارة النفس -وهي محل البحث والاستقصاء- وهي مراتب:

٢٥- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص (٢٦٢/٢٦)، الدار التونسية للنشر.
٢٦- مقاييس اللغة لابن فارس، ص (٤٢٨/٣)، دار الفكر للطباعة.
٢٧- لسان العرب، ابن منظور، ص (٥٠٤/٤)، دار صادر- بيروت.
٢٨- قال الراغب في المفردات في غريب القرآن، ص (٤٠٠)، الطّهارةُ ضربان: طهارةُ جسم، وطهارة نفس، وحمل عليهما عامّة الآيات.
٢٩- طهور المسلم في ضوء الكتاب والسنة، سعيد القحطاني، ص (٨)، نقلا من كتاب المغني لابن قدامة، الرياض، مطبعة سفير.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الأولى: الطهارة من الشرك، قال تعالى: {إنما المشركون نجس} [التوبة ٢٨]، قال ابن عاشور رحمه الله: «فليسوا أهلاً لتعمير المسجد المبني للتوحيد... وقد أُنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنّها نجاسة معنوية نفسانية، وليست نجاسة ذاتية... [٣٠]. وعليه فإن أعظم مراتب الطهارة التطهر من الشرك؛ إذ لا يمكن للعبد أن يتطهر من أي نوع من أنواع النجاسات المعنوية والحسية إلا إذا كان طاهر القلب والنفس من الشرك.

الثانية: الطهارة من أمراض القلوب، فالقلوب تمرض وتصاب بالعِلل كما تمرض الأجسام، وأمراض القلوب كثيرة متعددة، وإن من أعظمها ظلمة وفتكا في القلب النفاق، قال تعالى مخبرًا عن المنافقين في أوائل البقرة: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة ١٠]، وقد تكرر نعت قلوبهم بالمرض في اثني عشر موضعًا في كتاب الله؛ دلالة على عظيم خطرهم وخسة مكانهم. ومن الأمراض الكذب، ثم الكِبْر والهوى والحسد والغِلّ وغيرها الكثير الكثير، مما يتعذر حصره في هذا المقام.

الثالثة: الطهارة من المعاصي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبدَ إذا أخطأ خطيئةً، نُكِتتْ في قلبهِ نُكتةً سوداءَ، فإذا هو نزعَ واستغفرَ وتابَ، سُقلَ قلبهُ، وإن عادَ، زيدَ فيها حتى تعلو قلبهُ، وهو الرانُ الذي ذكرَ اللهُ {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}» [٣١]، فكما أن قليل البِرّ مع المداومة يطهّر القلب ويزكّي النفس، ويرفع الدرجات، فإن قليل الإثم مع المداومة يقسّي القلب، ويصرفه عن الحق، لذا كان يكثر -صلى الله عليه وسلم- من قوله: «اللَّهمَّ طهِّرْني مِن الذُّنوبِ بالثَّلجِ والبرَدِ والماءِ اللَّهمَّ طهِّرْني مِن الذُّنوبِ كما يُطهَّرُ الثَّوبُ مِن الدَّنَسِ» [٣٢].

الطهارة في الاستعمال القرآني

استعمل القرآن الكريم الجذر (طهر) ثلاثين مرة، لها دلالات ثلاث، تباينت الآيات بينها على النحو الموالي:

٣٠- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص (١٠/١٠٥).
٣١- سنن الترمذي، ص (٣٣٣٤)، حديث صحيح.
٣٢- صحيح ابن حبان، ص (٩٥٥)، ومثله عند مسلم، ص (٤٧٦)، باختلاف يسير، وغيرهما.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

أولاً: دلالة حسية، ولم ترد إلا في أربع آيات، منها:

- {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} [المائدة ٦].
- {وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} [البقرة ٢٢٢].

ثانيًا: دلالة معنوية، وهي التي تتقاطع مع التزكية في دلالاتها، فقد وقعت في إحدى عشرة كلمة، منها:

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المجادلة ١٢]
- {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب ٣٣]

ثالثًا: دلالة مشتركة بين المعنوي والحسي، وقد وقع في أربع عشرة كلمة، منها:

- {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف ٨٢]
- {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)} [الواقعة].

العلاقة بين مفهومي: التزكية والطهارة المعنوية:

أولاً: الطهارة والزكاة من المعاني التي إذا انفردت أو افترقت اتّحدت، وإذا اجتمعت افترقت، فإذا قال قائل: فلان زكّى ماله فإننا نفهم أنه أخرج فرض ماله وطهره، وإن قيل: فلان طهّر ماله فإننا نفهم أنه أخرج فرض ماله وزكاه، وأما اجتماعهما فبيانه في موضعين:

الأول: قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة ١٠٣]، ولعل هذه الآية هي عمدة هذا المبحث وعدته؛ لاشتمالها على كلا اللفظين، قال ابن عاشور: «{تُطَهِّرُهُمْ} إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: {وَتُزَكِّيهِمْ} إشارة إلى مقام

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التحلية بالفضائل والحسنات [٣٣]، فالعبد وهو في طريقه إلى الله لابد له أن يُقبل على الله بقلب خال من الأدران، محلى بالإيمان.

الثاني: قوله تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [البقرة ٢٣٢]، ففي هذه الآية النهي عن إعضال الزوجات عن الرجوع إلى أزواجهن إذا انقضت عدتهن؛ لما فيه من منع للأصل الذي هو اجتماع الزوجين وليس افتراقهما، فإذا توافقا وتراجعا، فإن ذلك يزكي حياتهما ويباركها، قال تعالى: {إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء ٣٥]، وقال: {فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتْ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء ١٢٨]، ثم قال جل من قائل: {وَأَطْهَرُ}، وهذا يمثل الحالة التي ستنشأ عن عودتهما لبعضهما بالطرق المشروعة المنصوص عليها، وإلا فإنه يخشى عليهما حال المنع اللقاء خلسة فيقعا في المحذور، قال صاحب روح المعاني: قيل: إن المراد أطهر لكم ولهم؛ لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما. [٣٤]

المطلب الثالث: سلامة القلب.

السلامة لغة:

قال ابن فارس: (سلم) السين واللام والميم معظم بابه من الصحّة والعافية؛ ويكون فيه ما يشذُّ، والشاذُّ عنه قليل [٣٥].

قال ابن منظور في دلالات الجذر (سلم): (سلم) السَّلامُ والسَّلامَةُ: الْبَرَاءَةُ. وتَسَلَّمَ مِنْهُ: تَبَرَّأَ. وقِيلَ لِلْجَنَّةِ: دار السَّلام؛ لأنها دار السَّلامةِ مِنَ الآفَاتِ. والتَّسْلِيمُ: بَذْلُ الرِّضَا بِالْحُكْمِ. والسَّلامُ: التَّحِيَّةُ، مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَمَعْنَاهُمَا السَّلامَةُ مِنْ جَمِيعِ الآفَاتِ. [٣٦]

٣٣- التحرير والتنوير لابن عاشور، ص (٢٣/١١).
٣٤- روح المعاني للألوسي، ص (١٤٥/٢) إدارة الطباعة المنيرية ودار إحياء التراث العربي- بيروت.
٣٥- مقاييس اللغة لابن فارس، ص (٩٠/٣) ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر للطباعة والتوزيع. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٣٦- لسان العرب لابن منظور، ص (٢٨٩)، دار صادر بيروت.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

السلامة اصطلاحا:

قال الراغب رحمه الله: السلم والسلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، قال: {بقلب سليم} أي مُتعرٍّ من الدَّغَل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: {مسلمة لا شية فيها}، فهذا في الظاهر. (٣٧)

ومن خلال ما سبق، يمكنني القول: سلامة القلب هي: فراغ القلب من الشر والآثام والأمراض والعصيان، وانشغاله بأسباب الرحمة ووسائل الرضوان.

فلا ينفع العبد يوم القيامة شيء كانتفاعه بسلامة قلبه، قال تعالى حكاية عن خليله في دعائه: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)} [الشعراء]، قال الغزالي: كل عبد سلم من الغِشّ والحقد وإرادةً الشر قلبه، وسلمت عن الآثام والمحظورات جوارحه، وسلم عن الانتكاس والانعكاس صفاته، فهو يأتي الله تعالى بقلب سليم... وأعني بالانتكاس في صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه. (٣٨)

سلامة القلب في الاستعمال القرآني:

استعمل القرآن الكريم مادة (سلم) مئة وسبعة وخمسين مرة، لها دلالات واستعمالات كثيرة، سأذكر منها ما اتصل بالدراسة بشكل لصيق ومنها:

أولاً: اشتق منها اسم من أسماء الله تعالى (السلام)، وذلك في قوله: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ} [الحشر ٢٣]، هو من الأسماء المتفق عليها ولم يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، «و{السلام} ذو السلامة من كل نقص وآفة، مصدر وصف به للمبالغة» (٣٩). وقال الغزالي في وصف الله السلام: «هو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه، صادرة منه» (٤٠).

٣٧- مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني، ص (٤٢١)، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم -دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٣٨- المقصد الأسنى للغزالي، ص (٥٣). خرج أحاديثه محمود بيجو، مطبعة الصباح، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٣٩- روح المعاني، الألوسي، ص (٦٣/٢٨)، إدارة الطباعة المنيرية ودار إحياء التراث العربي- بيروت.
٤٠- المقصد الأسنى للغزالي، ص (٥٣)، خرج أحاديثه محمود بيجو، مطبعة الصباح، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

ثانيًا: الدلالة على التخلص من الآفات والتحلي بالطيبات، كما في قوله: {إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء ٨٩]، وقوله في حق إبراهيم: {إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصافات ٨٤].

ثالثًا: الدلالة على الإخلاص وحسن الإقبال على الله، كما في قوله: {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة ١١٢].

العلاقة بين سلامة القلب والتزكية:

تعد سلامة النفس والقلب مرحلة بين مرحلتي التطهير والتزكية، فكما بيّنا سابقا في موضوع صلة الطهارة بالتزكية أن الطهارة تسبق التزكية، وهي بمثابة الإعداد القبلي لمقام التزكية. أما سلامة القلب، فهي درجة بينهما، وهي إلى التزكية أقرب، وإن شئت فقل: إن الطاهرة تخلية، وسلامة القلب تحلية، والتزكية ترقية وسمو.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الفصل الثالث:

محاور القرآن الثلاثة وعلاقتها بالتزكية، وفيه مباحث ثلاثة:

تعددت موضوعات القرآن الكريم وتنوعت محاوره، بين آيات العقائد والتشريع والقصص النبوي والكونية الدالة على عظمته وقدرته وغيرها من المحاور، لكنني في هذا الفصل سأقصر الحديث حول ثلاثة منها باعتبارها تتضمن بشكل أو بآخر جميع المحاور، وهي العقيدة والأحكام والقصص، راجيًا من الله العون والهداية.

المبحث الأول: العقيدة والتزكية.

يعد الإيمان والاعتقاد السليم هو أساس التزكية وروح الترقية، وكلما كان هذا الأساس راسخًا متينًا؛ كان البناء رزينا جميلاً، فلا يمكن بحال شموخ البناء إذا لم يكن ذا أساس متين، والنفس البشرية حتى تكتمل زينتها، لابد لها من أن تكون طاهرة المعتقد زكية الإيمان، فالعقيدة القويمة هي حركة القلب المطمئن، التي تبعث في البدن همة على الخير، لتعكس جمال الباطن وروعته، ظاهرًا متألقًا بديعًا صالحًا، وليس معتقد يجعل من صاحبه صالحًا للعرض على الله أجل وأسمى من التوحيد، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد ١٩] فطاف بها صلوات الله عليه وسلامه مناديًا: «يا أيُّها الناسُ، قُولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»[٤١]، لأنه يعلم أن فلاح هذه الأمة وزكاة نفوسها لا تكون إلا بسلامة الفكر وسلامة الفكر لا تكون إلا بالتوحيد، وقد استمر نزول القرآن ثلاث عشر سنة وهو يرسخ معاني الإيمان في الكيان المكي، حتى يهيأ الأمة لاستقبال المزكيات السلوكية والنفسية في العهد المدني، وهكذا في كل الدعوات، قال تعالى آمرًا نبيه موسى عليه السلام: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨)} [النازعات]، فقد كان أول ما ألقى عليه وهداه إليه؛ أن يزكي نفسه بالتوحيد ويطهرها من كل أنواع الشرك، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التجليات والترقي في الهدايات، {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [النازعات ١٩]. فمتى سلم المعتقد وصح الإيمان؛

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

طهرت النفس وتزكت، ولعل سلامة المعتقد وصحة الإيمان تتمثل في :

- العيش مع أسماء الله الحسنى روحًا وجسدًا، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إلاَّ واحِدًا، مَن أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» (٤٢) وإحصاؤها؛ هو حفظها ومعرفة معانيها، والعيش في ظلالها وتطبيقها، وليس أعظم من أسماء الله زكاة للنفوس والأرواح.
- الشعور بالتحرر من العبودية للبشر وسائر الموجودات، فليس في الكون إله يعبد ولا رب يرجى سوى الله جل في علاه، وهذا من أعظم أسباب تخلية النفس من الأغيار، وتحليتها بالله الواحد القهار، وهو تمام الطهارة وكمال التزكية.
- الشعور بالتبعية والانقياد للشريعة والكتاب، واعتبارهما الدستور الأوحد لبناء النفس وتزكيتها وبناء البشرية وتنميتها، قال تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [النساء ٦٥].
- الشعور بالرقابة، وهذا من أعظم أسس تزكية النفس والمجتمع قال تعالى: {...وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ..} [البقرة ٢٣٥]، وأنى لعبد أيقن أن الله يراه ويسمعه، وهو معه في كل حين أن يقع فيما يُدَسِّي النفس ويرديها.
- التحرر من الخرافات والأوهام وحث العقل وتحفيزه على العمل والتفكر؛ والتفكر من أهم أسباب جلاء النفوس، قال الحق سبحانه: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران ١٩١]، فالكون كتاب الله الفسيح، وآيات الله مكتوبة في واسع سمائه وباطن أرضه وتفاصيل خلقه وكائناته، وأقرب من ذلك قوله: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} [الذاريات ٢١]، قال الإمام علي كرم الله وجهه:

أتزعُمُ أنَّك جِرمٌ صغير ... وفيك انطَوى العالم الأكبرُ (٤٣)

٤٢- صحيح البخاري (٧٣٩٢) وغيره.
٤٣- ديوان الإمام علي كرم الله وجهه، (٤٥) جمعه ورتبه عبد العزيز كرم، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

- الشعور بالعزّة والحرية، فالإنسان المسلم يَكتسب هذا الشعور من عزّة الله وعظمته واستغنائه عن خلقه، قال جل من قائل: {..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [المنافقون ٨]، وهذا من أسباب جلاء النفوس وخلوها من الأغيار، وزكاتها بالله الواحد القهار.
- الشعور بالكرامة والكفاية من مجرد اليقين بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأما الآجال فهي كالأرزاق بيد الله تعالى وحده، فلن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأنفاسها، فمن كانت هذه عقيدته وهذا إيمانه، فهو طاهر القلب زكي النفس والروح.

المبحث الثاني: الأحكام والتزكية

تشغل آيات الأحكام حيزًا كبيرًا من كتاب الله تعالى، وقد اختلف أهل التفسير في عدد الآيات التي تتناول الأحكام الشرعية العملية، وهي التي يمكن بتدقيق النظر فيها التوصل إلى حكم شرعي، قال صاحب نيل المرام: «وقد قيل إنها خمسمائة آية، وما صح ذلك، إنما هي مائتا آية أو قريب من ذلك» (٤٤)، وقد غفل صاحبنا عن المصنف الكبير أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، الذي توسع في كتابه في تحديد آيات الأحكام حتى بلغت ثمانمائة وست آيات، ويرجع الخلاف في العد لاختلافهم في مفهوم آيات الأحكام، فقد ذهب البعض إلى أن آيات الأحكام هي التي موضوعها بيان حكم شرعي، وتوسع البعض فقالوا هي الآيات التي يمكن أن يستنبط منها حكم شرعي، وإن كان سياقها في غير آيات الأحكام، وهذا من حيث الوصول للحكم، أما من حيث نوع هذه الأحكام فقد توسع البعض أكثر فأكثر حيث قالوا هي الآيات التي تبين الأحكام الشرعية سواء كانت أحكامًا فقهية أو أحكاما اعتقادية أو أحكاما أخلاقية وتربوية، كما هو الحال في كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أمّا الإمام نجم الدين الطُّوفي فقد توسع أكثر فقال: «والصحيح أن هذا التقدير غيرُ معتبر، وأن مقدار أدلة الأحكام في ذلك غير منحصر؛ فإن أحكام الشرع كما تُستنبط من

٤٤- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، صديق حسن خان القنوجي (ا)، المطبعة الرحمانية – مصر، ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الأوامر، والنواهي؛ كذلك تُستنبط من الأقاصيص، والمواعظ، ونحوها، فقلَّ آية في القُرْآن الكريم، إلّا ويُستنبط منها شيء من الأحكام...» [٤٥]، والذي يعنيني في هذه الدراسة؛ هي الآيات الدالة على أحكام فقهية عملية، مبينًا علاقتها بتزكية الروح وترقيتها، مؤكدًا أن ما من آية حتى وإن كانت في باب الفقه والأحكام إلا ولها أثر في الروح والنفس، وليس كما يظن بعض الدارسين أن الأحكام وبابها أمر حاد وجامد، منفصل عن معاني التربية والتزكية، ولبيان هذا سأقف مع بعض الأحكام مبينًا كيف عالجها القرآن الكريم معالجة قلبية كما عالجها معالجة عملية، وكيف كان لها شديد الأثر في النفس وتزكيتها، سائلاً الله السداد.

المطلب الأول: الأحكام الفقهية العملية

أولاً: حكم الطلاق

مما يلفت الانتباه عند النظر في آيات الطلاق، أنه يتخللها التنبيه إلى أمور خارجة عن الطلاق وما يتعلق به من أحكام، إنما تصب هذه التذكيرات والتوصيات في معالجات قلبية صرفة، ففي سياق آيات الطلاق من سورة البقرة نرى آيات تذكر في أعظم وسائل التزكية كما أشرنا، وذلك في قوله: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)} [البقرة]، فكل من الصلاة والذكر أمور في ظاهرها لا علاقة لها في أحكام الطلاق، وهذا قصور في النظر وعجز في الفهم، فما مثل هذا الكتاب إلا كمثل عقد بهي من الياقوت واللؤلؤ، وكل آية من آياته ياقوتة بين صف جميل متراص من الياقوت، كل واحدة تحكي حكاية أختها، نعرف بعض حكاياتها ويخفى علينا بعضها، فمن تمسك بالصلاة وتأدب بآدابها وعمل بمقتضاها، فقد ألزم نفسه حدها، وأوقفها عند حدودها، ومن كان لسانه رطبا بذكر الله كانت روحه معطرة زكية بذكر الله، ومن جمع بين خيري الصلاة والذكر كان حريا به أن يعمل

٤٥- شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي (٣/٤١٥)، تحقيق الدكتور عبدالله عبدالمحسن التركي، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

بأحكام الطلاق ويتأدب بآدابه.

وكذلك الحال في سورة الطلاق، فقد تخلل الآيات وصايا بالغة الأثر في النفس الإنسانية، قال عز من قائل: {...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (٥)} [الطلاق]، ففي هذه الآيات تردد التذكير بالتقوى مرات ثلاث، وهذا أمر يستدعي تدقيق النظر ومعاودة الفكر والتدبر، فالطلاق وأمثاله من الأحكام التي تمس حياة الناس بشكل مباشر وتؤثر في مجرياتها بشكل كبير؛ لهي بأمس الحاجة لقلب زكي تقي، لا يظلم ولا يشهّر، يؤمن بالله ويسلم بقضائه ويرضى بحكمه، ويعطي الحقوق لأصحابها، فالمرأة وإن كان في ظاهر الأمر أنها كُسرت وتُركت، لكنه خير لها من العيش في ظل زوج يظلمها أو ينقص من حقوقها أو يهينها، فتنشغل بهموم الحياة وأحزانها عن مهامها وواجباتها تجاه أبنائها وربها وآخرتها، والرجل وإن كان في ظاهر الأمر أنه سيتحمل عناء الفرقة والانفصال والوحدة وما يترتب عليه من تكاليف زواج آخر، لكنه خير له من العيش في بيت ملؤه النكد والهموم والمشاكل والعتابات والمحاسبات، قال جل من قائل: {..وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..} [البقرة ٢١٦]، وفي خضم مجريات حكم الطلاق يأتي دور القلب المؤمن التقي الزكي، فلا ظلم ولا هضم ولا مساس بالقواعد الإنسانية التي أرساها هذا المنهج الرباني العظيم.

ثم قال سبحانه: {وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ} ومن جانب آخر فإنه قد يقع كلٌ من الرجل والمرأة فريسة لهواه أو لمكائد الشيطان، فيأخذ قرار المفارقة دون المراجعة والحسبة الكافية، بل لمجرد الحمية في موقف ما، لكنه حين تهدأ النار في قلبه يدرك أن عليه المراجعة

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

والتأني وعدم الظلم والتجني، فيأخذ قرار الرجوع لزوجه والعيش في بيت الزوجية فهو الملجأ والمأمن، حتى وإن اعتراه الزلل، وزاوله الخلل، حينها ليس من حق أحد أن يقف حاجزًا أمام الزوجين، ثم بينت الآية ثمرة الاستجابة لهذا التوجيه الرباني العظيم، فقال عز من قائل: {ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [البقرة ٢٣٢]، فكانت الزكاة وأكرم بها من ثمرة، فنسأل الله أن يصلح حالنا.

ثانيًا: حكم القصاص

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)} [البقرة]

مما لا يخفى أن الآدمي هو مادة الحياة، وما المخلوقات التي تدب فوق الأرض إلا مسخرة لأجله، فمن كان ساعٍ في هلاك الإنسان والإضرار به فإنما هو ساع في تعطيل دولاب الحياة وإفساد أركانها، قال تعالى في حق من يقتل نفسًا واحدةً: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً} [المائدة ٣٢]، من أجل ذلك غلّظ المولى سبحانه على المعتدين والمفسدين، وجعل في حقهم حكم المثل بالمثل، ألا وهو القصاص وهو كما قال ابن العربي رحمه الله: المساواة في استيفاء الحق [٤٦]، بمعنى أن يُفعل بالجاني لا بغيره مثل ما فعل بالمجني عليه تمامًا، وقد أورد ابن العربي سبب نزول آية القصاص من سورة البقرة فقال: «إنها نزلت فيمن كان من العرب لا يرضى أن يأخذ بعبد إلا حرًا، وبوضيع إلا شريفًا، وبامرأة إلا رجلا» [٤٧]، فبأي حق يستبدل الجاني ببريء! ثم ختمت آيات القصاص بقوله {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} حتى يعلم العباد أنه لا فصل بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب، فكل عمل من شأنه إصلاح الظاهر، وإدامة الحياة القويمة؛ إنما هو إعمار للقلوب وتزكية لها من عوالق

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الآثام والذنوب، وهذا التكامل بين الباطن والظاهر في مسيرة العبد إلى مولاه إنما هو امتداد طبيعي لمعاني الإيمان العظيمة الراقية، فنسأل الله أن يصلح الظواهر والسرائر، إنه هو القوي القادر.

ثالثًا: حكم الدَّين

في خضم الحديث والتفصيل في حكم الدين وما يتعلق به، يُذكِّر المولى جل في علاه بقضية التقوى مرتين، أما الأولى: {...وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ...} [البقرة ٢٨٢]، والثانية بعد الانتهاء من التفصيل في أحكامه يقول سبحانه لجميع أطراف المعاملة: {وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ...} [البقرة ٢٨٢]، يُذكِّر المولى سبحانه بالتقوى أطراف هذه المعاملة المالية مرتين في آية واحدة، فالمال مما يفتتن به الناس، وليس حاجز أمام الفتن أعظم من التقوى، فالقلب الزكي التقي يدق أجراسه عند كل مخالفة وانحراف منبهًا صاحبه لكي لا يقع في الإثم ويتوغل فيه، قال الحق سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف ٢٠١] مبصرون بأعين قلوبهم قبل أعينهم التي في رؤوسهم، فنسأل الله زكاة نفوسنا وتقواها إنه وليها وموالاها.

المطلب الثاني: الأحكام الأخلاقية والتربوية

أما الأحكام الأخلاقية والتربوية فستكون وقفتنا مع مسألتين عظيمتين، كلاهما في سورة النور قل الحديث عن موضوعهما في كتاب الله تبارك وتعالى، لذا فقد يغفل بعض الدارسين عن أثر كل منهما في تزكية النفس وتطهيرها:

المسألة الأولى: في أدب الزيارة، قال تعالى: {فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [النور ٢٨]، فمن البديهي أن دخول البيوت حال غياب أصحابها أمر منهي عنه، لكن الآية في قسمها الثاني ذهبت تعالج قضية غاية في الدقة والرقي، فإذا كان

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

أهل البيت حاضرين لكن الظرف غير مهيأ لاستقبال أحد فيمكنهم أن يعتذروا للزائر، إلا أن مثل هذا الأمر ثقيل على النفوس إلا من سَمَتْ أخلاقهم وطهرت سرائرهم، أورد الطبري في تفسيره مقالة رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط، لقوله: {وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}[٤٨]، وذلك حين يعرف الإنسان أنه إذا قبل عذر صاحب البيت بنفس راضية وبروح رياضية، فإن ذلك فيه زكاة لنفسه ومطهرة لروحه، فيرجع وليس في قلبه عليه سوى الرضى عنه والدعاء له، فلعل المانع كان بسبب مرض أو مصيبة أو ضائقة، فكما قيل: البيوت أسرار.

المسألة الثانية: غض البصر، قال تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور ٣٠]، أما هذه الآية العظيمة، فهي تعالج قضية غاية في الحساسية والأثر، فغض البصر لا شك هو أمر مادي، لكنه شديد الأثر في النفس البشرية، فالبصر طائر القلب، فإذا جال في الأرجاء دون ضبط وانتباه سقط في شباك الشهوات، فيصبح حينها أسيرًا لشهواته عبدًا لملذاته، وهذا بدوره يحدث في النفس أثرًا بالغًا، يحول بينها وطهارتها وزكاتها، بل ويكون ذلك سببا في الران الذي يغطي القلب، قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين ١٤]، أما من ألزم بصره حده وضبط شهوته، تحقق من معاني التزكية، لذا سيق بعد الأمر بغض البصر قوله: {ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ} والزكاة هنا زكاة النفس وطهارتها من آثار ومخلفات هذه الآثام، فنسأل الله أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وما سبق من الأحكام إن كانت اجتماعية كالطلاق، أو مالية كالدين أو تعبدية كالصلاة والصيام والحج، أو أخلاقية كآداب البيوت؛ فكلها مرهونة بالقلوب، فكما قيل: القلوب أوعية والجوارح مغارفها، فما عَمَرَ العبد به قلبه، ظهر في سلوكه وعمله.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

المبحث الثالث: القصص والتزكية

تعد القصة في القرآن أساس آخر في بناء التزكية العظيم، وتكوين الروح المتين، لما للقصة من أثر بالغ في النفس والروح، فلم يترك القرآن من خلال النظر في مناهج الأنبياء في دعواتهم لفلتات النفوس وهفواتها بابا إلا وأغلقه، ولا ثغرًا إلا وردمه، وهذا في قصص الأنبياء خاصةً، وفي القصص القرآني عامة، وليس عبثا أن تشغل القصة في القرآن حيزًا كبيرًا، فقد بلغت آيات القصص في القرآن زُها ستون وأربعمائة وألف آية، أي ما يعادل ثلاث وعشرون بالمائة من القرآن الكريم، وهذا قدر كبير يستحق النظر والمدراسة وتتبع الأثر والغاية، وسنبين في هذا المبحث من خلال النظر في بعض من القصص النبوي وغير النبوي، أثر القصة القرآنية في تزكية النفس الإنسانية، سائلا المولى العون والتوفيق.

المطلب الأول: علاقة التزكية بالقصص النبوي

أرسل الله الأنبياء والرسل وجعل في سلم أولوياتهم تطهير النفوس وتزكيتها، قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة ١٥١]، وقال في الزهراء الثانية: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [آل عمران ١٦٤]، وقبل أن يشرع الأنبياء في تزكية أقوامهم؛ زكاهم والله في ذواتهم وطهر نفوسهم، فما منهم من نبي إلا ومر بمراحل التنقية والتزكية والتحلية والترقية، وسنقف في هذه الدراسة على بعض المشاهد النبوية متأملين أهمية التزكية في قصصهم.

النبي الأول: هذا نبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي كان يناجي ربه وينادية: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)} [الشعراء] فسلامة القلب خلوه مما يدنسه وامتلاؤه بما يحليه ويزكيه، وهذا بلا شك لا يتأتي حضوره إلا بعد المرور بمرحلة من الاختبارات التي عودتنا عليها الآيات القرآنية،

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

من أجل هذا فقد مر إبراهيم بمرحلة عصيبة هو وابنه إسماعيل عليهما السلام من التزكية والترقية، ذاك حين أمره الحق سبحانه بأمرٍ ثقيلٍ مختبرًا صبره وإيمانه، أن يذبح ابنه وفلذة كبده إسماعيل عليه السلام، فلم يتأخر ولم يتردد، فليس إبراهيم من يثنّي عليه الله أوامره، {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى} [الصافات ١٠٢]، فلم يجد من ابنه إلا الرضا والتسليم، فهو على قدر النبوة والأمانة، مسابقًا أباه في انصياعه وطاعته {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات ١٠٢]، وفي مشهد تختلط فيه مشاعر الصبر والقوة والرضى، بالألم والحزن والأسى، قوة النبي المؤمن، وحزن الأب المشفق الحليم، {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} ولسان حال إسماعيل ومقاله {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} فداك روحي ودمي، فجاءت البشرى {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)} [الصافات]. فكانت هذه المحنة مطهرة وأي مطهرة وتزكيةً وأي تزكية، فتنفس النبيان الصعداء وتجاوزا اختبارًا عصيبًا، ونالا به عند الله مقاما رفيعًا، ثم راحا في قومهم دعاة مرشدين، التزكية مقصدهم، وأعز غاياتهم، فقد كان من دعاء إبراهيم عليه السلام {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]، فأصابت دعوته هذه الأمة فأرسل الله فيها أزكى نبي وأشرف رسول، ما لبث في الأمة يومًا إلا وسعى في تطهيرها وتزكيتها، وبَثِ الحكمة في شراينها فعليه صلاة الله وسلامه.

النبي الثاني: وليس نوح منه ببعيد، وذلك حين انتهى من بناء السفينة وراح يلملم شعث قومه ودوابهم أزواجًا أزواجًا، ينادي في الناس يرجو نجاتهم وابنه وفلذة كبده معهم {يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ} [هود ٤٢]، فتجاهل الابن نداء أبيه لعل جبلاً يعصمه، فهلك الناس وهلك معهم، فرقّ قلبُ أبيه فاغتم واهتم، فنادى مولاه {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} [هود ٤٥]، فرد عليه الحق رد العدل والحق {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ (٤٦)} [هود]، فانصاع لله مستعيذًا به من عصيانه ومخالفة أمره، راجيًا غفرانه ورحمته، فكانت هذه بمثابة التطهير من حظوظ النفس، حتى ولو كانت في أعز ما في الدنيا من زينة ومتاع، ذلك حتى يكون قادرًا على بناء أمة مجيدة ودولة رشيدة، تليق بإرث الآباء والأجداد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، عليهم الصلاة والسلام.

النبي الثالث: وفي مهده ابتلي موسى عليه السلام، ولد في زمن تعقدت فيه الأمور، واسودت في عين فرعون الحياة، فأمر بقتل كل ذكر من المواليد، فاشتد الأمر على أمه، حتى جاء الفرج من السماء على نحو لا يتصوره العقل البشري المحدود، {أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه ٣٩]، ولسنا بصدد التفاصيل، إنما أردناه أنه مرّ بمرحلة التمحيص وهو في المهد صبيا، لتذهب عنه عوالق الدنيا قبل أن تعلق به، وليرفع من شأنه وتُزكي روحه، ليذهب بعدها إلى فرعون وقد حمل وصية الله بأعظم ما كان من الوصايا {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩)} [النازعات]، وكما أشرنا سابقا فإن أعظم مراتب التزكية تزكية الروح بالإيمان القويم والعقيدة والسليمة.

النبي الرابع: ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلٌ أعظم وأجل، فلقد ابتلي بفقد أحبته واحدا تلو الآخر، أما أباه فلم ينعم برؤيته، وأمه وافتها المنية قبل فتوته، وجده قبل نبوته، وزوجه خديجة وعمه في أوج دعوته، فكان ذاك العام عام حزنه وشدته، ولم تزده هذه الصدمات إلا صبرًا وثباتًا وطيبًا وزكاة، ثم بعد ذلك كلفه الله في مستهل نبوته بما لم يكلف به أمته، حتى يزيد في زكاته ويرفع من شأنه ومكانه، فقال: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)} [المزمل]، فكان قيام الليل مطهرة لروحه عليه الصلاة والسلام، وتهيأة لنفسه

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

حتى تتحمل العبء الثقيل والأمانة العظمى، {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)} [المزمل]، وبعد ذلك انطلق عليه الصلاة والسلام في دعوة قومه إلى التوحيد، والإيمان باليوم الآخر والجزاء، حتى يطهرهم مما كانوا فيه من عوالق جاهليتهم وأرجاس شركهم، فتزكو بذلك أرواحهم وأبدانهم، ثم تدرّجت الدعوة والهداية ففرضت عليهم الصلاة قبل الهجرة، ثم الصيام والزكاة بعدها، وتلاهما الحج، كل ذلك من شأنه كبح جماح النفس وإيقافها عند حدها، قال تعالى: {وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[العنكبوت ٤٥]، فما من عمل من أعمال البر التي علمهم، إلا وكان له أثر في تزكيتهم وإصلاح نفوسهم، ثم سارت الأمة من بعده على خطاه صحابة وتابعون، كل منهم على قدر طاقته، وإلى يومنا هذا فإن كل مسلم موحد يعلم تمام العلم أن لا سبيل لتطهير النفوس وتزكيتها إلا باتباع هدي النبوة وسراج الرسالة، فنسأل الله العون السداد والتثبيت.

المطلب الثاني: علاقة التزكية بقصص غير الأنبياء

كثر القصص في القرآن الكريم في حق رجال أن نساء ليسوا برسل ولا أنبياء، أو أقوام لم يحدد في زمن أي نبي كانوا، قال تبارك وتعالى {كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً} [طه ٩٩] كقصة أهل الكهف، ومؤمن آل فرعون، وأصحاب القرية، وأصحاب الأخدود وغيرها الكثير، أو أخبار رجال عظماء أوردها القرآن الكريم للعبرة والاتعاظ، كما هو الحال في خبر الخضر مع موسى عليه السلام، ولقمان الحكيم مع ابنه.

وبعد النظر في كل ما أشرت إليه وغيره، وجدت أن التخلية والتحلية -أي التزكية- هي من أهم المحاور التي ركزت عليها، مبتدئين جميعا بأعظم ما يزكي العبد ويرفعه ألا وهو التوحيد، فهذا لقمان الحكيم الذي كانت وصاياه لابنه تصب في محور التربية الإيمانية والتزكية الروحية، فكانت أولى وصاياه: {يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان ١٣]، ثم راح يوصيه الوصية تلو الوصية في شتى مناحي الحياة، كلها تصب في التربية والتزكية، حتى يبلغ به مراتب الأتقياء

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

ومنازل الأنقياء، فأوصاه بالوالدين، ومراقبة الله تعالى وإقام الصلاة والصبر والتواضع وغض البصر، وغيرها من الوصايا القيمة التي من شأنها أن تزكي الإنسان وتحليه.

وفي الخضر مع موسى عليه السلام عبرة عظيمة، فقد كانت الدروس التي أرادها الله لموسى من لقائه الخضر دروسًا روحية قلبية، فيزكو ويتطهر من مشاعر الأنا حين سأله قومه؛ من أعلم الناس؟ فقال أنا.

وهاهم أصحاب الكهف الذين خرجوا من ديارهم متحملين مشقة وعناءً، وغربة وفقدًا، في سبيل إيمانهم واعتقادهم بلا إله إلا الله، حتى لا يخالطها شيء من أدران قومهم وخبث شركهم، فتبقى بذلك نفوسهم زكية نقية، ولم يُنسِهم طول نومهم الحرص على ما هو زكي نقي من الطعام والشراب، فلما أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم قوتهم قالوا: {فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً} [الكهف ١٩].

وليس مثلٌ أعظم من أصحاب الأخدود، فبعد أن تزكت أرواحهم وتعطرت نفوسهم بالهداية والإيمان، هانت عليهم أبدانهم، فثبتوا على الحق وصبروا على الظلم، وأقبلوا على الحق بصدورهم وأزواجهم وأبنائهم فكان جزاؤهم أعظم جزاء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج ١١].

وهذا نزر يسير من مشاهد التزكية والتحلية في القصة القرآنية، التي أخرجت أمما زكية نقية عظيمة، يؤكد على وثاقة الصلة وبالغ الأثر للقصة في النفس الإنسانية، والحمد لله رب العالمين.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الخاتمة

الحمد لله الكريم الذي منّ علي بالتمام، والصلاة والسلام على النبي والآل والصحب الكرام، وبعد:

أسأل الله أولا أن يغفر زلتي وأن يقيل عثرتي، وأن يكتب لبحثي قبولاً واسعا ونفعًا مديدًا، متيمنًا قول الشاطبي في ختام حرز الأماني:

وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا ذُنُوبُ وَلِيِّهَا فَيَا طَيِّبَ الْأَنْفَاسِ أَحْسِنْ تَأَوُّلَا
فَيَا خَيْرَ غَفَّارٍ وَيَا خَيْرَ رَاحِمٍ وَيَا خَيْرَ مَأْمُولٍ جَداً وَتَفَضُّلَا
أَقِلْ عَثْرَتِي وَانْفَعْ بِهَا وَبِقَصْدِهَا حَنَانَيْكَ يَا اللهُ يَا رَافِعَ الْعُلَا

وفي سطور قليلة سأضع بين يدي القارئ أهم النتائج التي انتهى إليها بحثي، وهي على النحو الآتي:

- أن موضوعات التزكية قد شغلت حيزًا كبيرًا في واقع الآيات القرآنية صراحة وإشارة، وأن لها مصطلحاتها الخاصة بها والدالة عليها، ولها وسائل لتحقيقها وموانع تحول بينها وبين مريدها، وأنها مرتبطة ارتباطا لا ينفك بمحاور القرآن الكريم كالعقيدة والأحكام والقصة.
- رحلة التزكية تبدأ بسلامة المعتقد ثم سلامة المنهج ثم سلامة السلوك وتنتهي بحسن التوجه إلى الله وتخلص القلب من كل ما من شأنه النزوع إلى معصية الله أو الوقوع بالمحرمات.
- أن التزكية بمثابة إصلاح النفس، والصلاح بتقدير الباحث هو مقدار جاهزية هذه النفس للقاء الله تعالى، فمتى ما اجتهد الإنسان على نفسه تحسينًا وتجويدًا وإعدادًا؛ كان صالحًا لساعة العرض والمثول بين يدي الله جل في علاه.
- أن التزكية مادة قابلة للتطبيق، وأنها ليست مجرد معانٍ روحانية مغلقة على بعض الفئات، وهذه خاصية عظيمة لهذا الدين، فالدين بتعاليمه وأسسه بمثابة النظريات المثبتة بالتجربة والحجة والبرهان، والتزكية جزء من هذه النظريات العظيمة فهي قابلة للتعلم والتطبيق.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التوصيات:

- ضرورة مداومة البحث حول موضوعات التزكية في ثنايا القرآن فهي مادة غنية وتستحق البحث والعناية.
- التركيز على حيوية موضوعات التزكية، بمعنى أنها لازمة من لوازم حياة كل المؤمن، وأنها ليست طابعًا أو طقوسًا لرجال الدين وأصحاب العمائم.
- التركيز على الجانب العملي والتطبيقي في موضوعات التزكية، مما يجعلها مادة حية قابلة للتطبيق، وليست أسرارًا لا يتقنها إلا ناسك أو عارف.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الجامعة الإسلامية بمنيسوتا

Islamic University of Minnesota

المركز الرئيسي IUM